-2-

الصراع داخل الإسلام

كان يـوم التاسـع والعشرين من شهـر آب / أغسطس 1659 حـارا ورطبا في دلهي، عاصمـة الإمبراطورية المغولية القوية. احتشدت جماهـير غفيرة على الطرقات الرئيسة لإلقـاء نظرة ولو خاطفة على الأمير المحبوب، دارا شيكوه، الوارث الشرعي لشاه جيهان، بـاني تاج محل الشهير. لكـن المناسبة لم تكن سعيدة. فقـد كان دارا على وشك أن ينفذ فيـه حكـم الإعدام[1]. وحين لمحته الجماهـير، علت تنهداتها. نظـر الأمير دارا، بوجهه الشاحـب وثيابـه الرثة إلى الجماهير من فوق ظهر فيل مغطى بالأقذار. كان يجلس بإباء وعـزة إلى جانـب ابنه البالغ من العمر خمسة عشر عامـا، وهو عارف بأن القصد إذلاله أمام الملأ، وأن هذه هي رحلتهما الأخيرة.

ثـم ظهر نبيل أفغـاني يدعى مالك جيـوان، فعلت صيحـات الاستهجـان والازدراء. بعضهـم رماه بروث البقر احتقارا لخيانته لـدارا، الذي أنقذ حياته ذات مرة من مصير مشابـه. فردّ النبيل الفضـل بالغدر والوشاية به عند اورانغزيـب، أخيه الأصغر وجلاده، الـذي اغتصـب العرش وأصبح الآن حاكم دلهي. فحين سقـط شاه جيهان مريضا، وضع اورانغزيـب، قائد الجيش الإمبراطـوري المحنك الذي خبر المعـارك والحروب، والده في السجن وتحدى دارا في معركة هزمه فيها بسهولة.

حسم النصر مصير دارا. فقد حوكم ووجد مذنبا بتهمة الزندقة، وصدر بحقه حكم الإعـدام. وحين أحضر رأسـه إلى اورانغزيب، صاح متعجبا: "مثلما لم أنظر في وجه هذا الكافـر في حياتـه، لن أنظـر إليه الآن"[2]. وأمـر بوضع الرأس في صنـدوق وإرساله إلى شـاه جيهـان في زنزانته. تذكر الوالد المفجـوع بابنه العزيز، وقد هـده المرض والقنوط، زيارة قام بها إلى مقام الولي الصوفي الكبير في أجمر قبل ولادة دارا ودعاءه أن يشفع له ليرزق بابن يرث عرشه. وعند ولادته، كرم الولي لنجاح شفاعته له عند الله، وأمر بإقامة احتفـال ضخم شمل إطلاق ألعاب نارية أنارت السمـاء المظلمة بآلاف الألوان والأشكال،

وتوزيع الصدقات على الفقراء. ولسوف يمضي شاه جيهان بقية أيامه وهو ينظر عبر شق في زنزانته إلى تاج محل، ويندب زوجته الحبيبة المدفونة هناك، وينوح على خسارة ابنه العزيز على قلبه.

لم يكن من السهل قهر المُثل التي يجسدها دارا، على الرغم من الانتصار الذي حققه اورانغزيب في ميدان المعركة. دارا صاحب الشخصية الآسرة والفكر المتطور، اكتسب شعبية واسعة لدى أتباع جميع الديانات، فقد عقد صداقات عميقة وحقيقية مع الهندوس والسيخ، ومارس دورا فعالا في أول ترجمة للنصوص الهندوسية المقدسة (الاوبانيشاد وباغافاد غيتا) إلى اللغة الفارسية، مع أنه عالم متفقه في التراث الإسلامي. ومن هذه الترجمات التي دعيت غالبا بـ "السر الأكبر"، سوف تكتشف أوروبا النصوص الهندوسية الكلاسيكية بعد عدة قرون.

في عدد من الأعمال الكبرى، جادل دارا في صحة الرأي القائل إن الهندوسية دين عبدة الأصنام، ودعاها الديانة التوحيدية الأصلية لأن فكرتها عن براهما، رب الوجود النهائي، سبقت حتى الديانات الإبراهيمية. وربما يكون أشهر عمل له كتاب "مجمع البحرين"، الذي يحاول فيه تأسيس وحدة جامعة بين الديانات الإبراهيمية والديانات الهندية عبر روحانية التراحم والتعاطف التي تنادي بها الصوفية والهندوسية، وكلتاهما كما يحاجج دارا، ترى "العشق" بأكثر المعاني كمالا ومثالية في جوهر المقدس. إذ ولدت من العشق الروح العظمى، المعروفة بروح محمد نبي الإسلام، وولدت من العشق أيضا مهاتمان، الروح العظيمة في الهندوسية. أما الخاتم الذي لبسه دارا فقد عبر عن الوحدة النهائية للإله، حيث "برابو" (إله الهندوس) على وجه و"الله" على الوجه الآخر. كتب دارا يقول: "الروحانية هي المساواة. فإذا علمت أن كافرا غارقا في الخطيئة يرتل لحن التوحيد، أذهب إليه، وأسمعه، وأدين بالفضل له"[3].

لم يجد دارا متسعا من الوقت لرجال الدين المسلمين، على الرغم من حبه للروحانيين والباطنيين والمتصوفة في جميع الديانات: "الجنة هناك حيث لا يوجد ملالي"[4]. في النهاية، سيقرر رجال الدين هؤلاء مصيره ويتهمونه بالزندقة. لكن جذبته الرسالة الروحانية والعالمية الشاملة في الإسلام واستمد إلهامه من نبيه مباشرة. في الوقت ذاته،

وبوصفه الابن البكر لإمبراطور الهند، التي تضم أغلبية من السكان الهندوس، أدرك مآزق النخبة الإسلامية الصغيرة التي تحكم عددا ضخما من أتباع دين مختلف. ولذلك، كان من الطبيعي أن تتحول أفكاره إلى اكتشاف الرابط المشترك بين الإسلام والديانات الهندية. استمد إلهامه أيضا من مثال جده الأعلى الإمبراطور أكبر، الذي "أصر في تسعينيات القرن السادس عشر على الحاجة إلى الحوار الحر والمفتوح وحرية الاختيار، وعمل على ترتيب المناقشات المتكررة التي لا تشمل التيار الغالب من المفكرين المسلمين والهندوس فقط، بل المسيحيين واليهود والفرس واليانيين وحتى الملاحدة"[5].

من بين الذين اجتذبتهم حلقة دارا التي ضمت تشكيلة متنوعة من الأصدقاء والمعجبين، سرمد، وهو يهودي من فارس كان تاجرا ومتصوفا في آن. ومع أنه اعتنق الإسلام، لكنه أتخم شعره بالصوفية والروحانيات. وأمتعته فكرة اعتلاء دارا عرش الإمبراطورية، لأن هذا يؤذن بحكم قائم على السلام والتنوير الروحاني. وعلى شاكلة دارا، قتل سرمد في نهاية المطاف على يد اورانغزيب، الذي انتصر تفسيره للإسلام على محاولة دارا الحالمة توحيد التراثين العظيمين للإسلام والديانات الهندية.

كان اورانغزيب المتقشف يكره الموسيقى، وأقام حكمه على الشريعة الإسلامية، ورعى التعليم الإسلامي، وفرض ضريبة على رعاياه من غير المسلمين. وجهد لصنع نسخ من القرآن، ثم باعها ووزع المال على المحتاجين. وعلى عكس تاج محل، حيث دفن والداه، كان قبره بسيطا وفقا للتراث الإسلامي المتشدد. يصف ستانلي ولبرت، أحد أشهر مؤرخي الهند، اورانغزيب بأنه كان "في آن معا أكثر المغول العظام تقوى وأشدهم قسوة.. وامتدحه الإسلام السني بوصفه خليفة الهند الوحيد، في حين ذمه الهندوس حتى أكثر من الغزنويين والغرس (أسرتين مالكتين إسلاميتين) نتيجة المعاناة التي سببها إيمانه بصوابية معتقده لرعاياه من غير المسلمين في أوقات السلم والحرب معا"[6].

لم يكن من المفاجئ لي العثور على نسخة من القرآن مكتوبة بخط الإمبراطور المغولي اورانغزيب في مكتبة ديوباند. ففي نظر العديد من المسلمين في شتى أنحاء جنوب آسيا، كان اسم اورانغزيب يرمز للإسلام القوي المتشدد. وحين يشير إليه المعجبون به يستخدمون لقبه الرسمي "فاتح العالم"، في حين يضيف آخرون إلى اسمه "ولي الله". في

رواية اي. ام. فورستر "ممر إلى الهند"، يحلم البطل المسلم الدكتور عزيز، بالسير خلف اورانغزيب إلى المعركة، فهو بطل الإسلام المثالي برأيه. ويذم المسلمون المعجبون باورانغزيب دارا بصفته مسلما ضل سبيله.

بحلول وقت وفاته عام 1707، وسع اورانغزيب حدود الإمبراطورية المغولية لتشمل معظم أفغانستان وباكستان والهند وبنغلادش حاليا – وهي مناطق يمثل سكانها اليوم زهاء ربع سكان العالم. وبلغ الانطباع القوي والمؤثر الذي تركه أباطرة المغول على الأوروبيين حد دخول لفظة / مغول / اللغة الإنكليزية، في حين تشير الكلمة المشتقة منها /mogul/ إلى أباطرة السينما الأقوياء في هوليود[7].

لكن بحلول نهاية حكم اورانغزيب، بدأت حدود الإمبراطورية تتقلص أمام عدد من القوى الناشئة، خصوصا ردة فعل الهندوس والسيخ العنيفة على ميراث حكمه. إضافة إلى ذلك، كان البريطانيون، الذين وصلوا في القرن السابع عشر، يوسعون مدى نفوذهم – وسوف يستمرون في ذلك حتى استعمار الهند برمتها في القرن التاسع عشر.

في عام 1857، اجتاحت الهند انتفاضات شعبية، دعاها البريطانيون "العصيان الهندي الكبـ "، والهنود "حرب الاستقلال الأولى". وضع البريطانيون اللوم على المسلمين، مع أن العديد من الجماعات شاركت في القتال. زالت إمبراطورية المغول، ونفي الإمبراطور إلى رانغون، وقتل ورثة العرش، وحظرت اللغة الفارسية كلغة رسمية واستبدلت بالإنكليزية. أسست تراتبية وقيم اجتماعية جديدة معادية ومناقضة للممارسات الإسلامية. تصف الروايات المعاصرة كيف حرم نبلاء المغول من ثروتهم وماتوا جوعا، وكيف تحولت الأميرات إلى عاهرات من أجل البقاء[8]. ومع اختفاء أسلوب الحياة الذي عرفه المسلمون في الهند على مر القرون، أدركوا أن الوقت قد حان للرد على انحدار موقعهم ومكانتهم بهذه السرعة. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، تلاشت رؤية دارا عن الإسلام الروحاني الصوفي وأعيد فرض النهج التراثي المتشدد الذي اتبعه اورانغزيب. في البيئة المشحونة لهذه الحقبة، رجع بعض المسلمين إلى نموذج أجمر الذي جسده دارا شيكوه، لكن تبنى غيرهم الجهاد الأكثر عدائية للبريطانيين، مثلما نادى به نموذج ديوباند، في مسعى لحماية معتقداتهم وأسلوبهم في الحياة. لكن لم يخدم أي من

النموذجين حاجات المجتمع. فالعصر كان يدعو إلى استجابة إسلامية مختلفة كليا تتطلب مواجهة مباشرة مع العالم الغربي البازغ والمهيمن. لم تتأخر الاستجابة "الحداثية". فقد انطلقت من كلية جديدة أسست في بلدة عليكره الهندية.

"الصلح للكل"

مشى سميي، أكبر العظيم، حافيا أياما طويلة عبر صحراء راجستان اللاهبة ليصلي في مقام معين الدين تشستي في أجمر. تعمد أكبر إذلال لنفسه علنا ليتوسل طالبا شفاعة الولي ليرزقه الله بولد، مع أنه كان واحدا من أقوى وأغنى الحكام في آسيا – بل في العالم آنذاك. وقدم بذلك نموذجا تحتذي ذريته مثاله، وهذا ما فعله شاه جيهان. تعززت سمعة ومكانة الولي بوصفه يمتلك قوى روحانية وقدرات غامضة على غمر الفقراء بالبركة، بمولد وارث عرش أكبر. غدت قصص المعجزات والبركات نتيجة الصلاة في أجمر أساطير تناقلتها الأجيال على مر القرون. ومن ثم أدى المتضرعون الذين يطلبون بركات ونعم الله بهذه الطريقة دور "المتسولين"، بغض النظر هل كانوا أباطرة يصلون ليرزقهم الله بوارث، أم أشخاصا عاديين مثلي يسعون لترويج السلام والفهم. وفي الحقيقة، فإن التضرع هو الطريقة الفضلى والمؤثرة لكبح ما يدعوه المجتمع الحديث بالأنا. وهذه بالضبط، بمختلف أقنعة التنكر التي تضعها، خصوصا السلطة المفرطة والثروة المسرفة، هي التي يرغب الروحانيون المتصوفة في ضبطها وكبحها بواسطة "الفناء"، لأنهم يرونها عقبة تعيق التنوير الروحاني والترقي الشخصي.

عمت الروحانية حكم أكبر وساعدته على توحيد الأعراق والأديان المختلفة في إمبراطوريته الشاسعة. وأمر حكامه وولاته بقضاء أوقات فراغهم في قراءة أشعار جلال الدين الرومي الصوفية. ولا بد أن والدي قد جذبته إنسانوية أكبر، فسماني على اسم الإمبراطور.

في آذار / مارس 2006، وجدت نفسي مرة أخرى "متسولا" في أجمر. لا يوجد مكان في العالم – برأيي – يشابه أجمر. فالهواء نفسه مترع بالروحانية. وكل زيارة تحيي روحي وتعيد توكيد البركات والنعم النهائية لله الرحمن الرحيم العطوف الكريم. كان الليل يرخي سدوله وأوائل النجوم الزهر تتلألأ في السماء حين دخلت المقام، لتستقبلني مرحبة

موسيقى القداسة والولاء العذبة. كان الجميع من حولي، شيبا وشبابا، رجالا ونساء، أغنياء وفقراء، يدورون حول المقام وقد اختلط بعضهم ببعض مترعين بالرضى والقناعة. وبدا من التنوع الحاشد للجنسيات والأعراق والأديان، أن البشر كلهم مجتمعون هناك.

خلعنا أحذيتنا قبل دخول المقام وفقا للعادة المتبعة. ولاحظت أن أعضاء فريقي قد تخلصوا بحرص وكتمان من هواتفهم النقالة وجميع ما يحملونه عادة من أجهزة العولمة التي غدت جزءا من هويتهم. فهم أيضا يدخلون حرمة المقام وروحانيته ويتخلون عن أوضح علامات الأنا. حرصنا جميعا على تغطية رؤوسنا تعبيرا عن احترامنا للمكان. اعتمرت أنا وفرانكي نوعا من العمامة (مؤلفة من قطعة قماش وردية). في حين كانت هاديا محجبة أصلا ولذلك كان لباسها مناسبا، وارتدت هيلي اللباس الإسلامي التقليدي وغطت شعرها. أما تريديفيش سينغ، دليلنا في الهند، فقد كان يرتدي العمامة عادة (لأنه من طائفة السيخ).

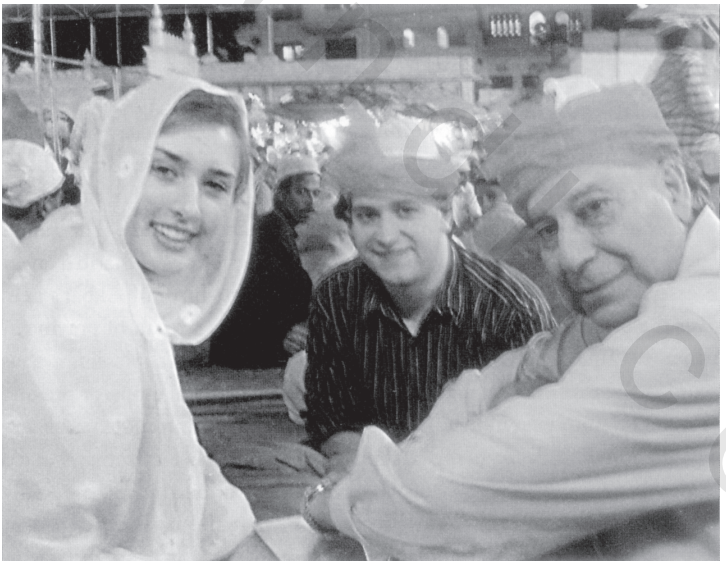

هيلي ولدت، وفرانكي مارتن، وأكبر أحمد، يستمعون إلى الموسيقى الروحانية العذبة في ساعة متأخرة من الليل في باحة مقام الولي الصوفي في أجمر (بالهند). رسالة "الصلح للكل" للمتصوف الشهير المدفون هناك، معين الدين تشستي، تجتذب آلاف الزوار من جميع الديانات كل سنة.

رافقنا مقدس معيني خادم المقام المتحدر من نسل الولي مباشرة، وكان مضيفي خلال زيارة سابقة لتصوير فيلم "الإسلام الحي" لصالح هيئة الإذاعة البريطانية.

قـدم معيني سلـة مسطحة تحوي وريقات الـورد الأحمر ممزوجة بزهـور بيضاء ومرتبة علـى شـكل حلقات تؤدي جميعـا إلى مركز واحد وتمثل وحدانيـة الله. ثم طلب من هيلي تحديـدا وضع السلة على رأسها بحيث تستطيـع أداء شعيرة نثر الورد على ضريح الولي. عرفـت من زيارتي الأخـيرة أن هذا يمثل تشريفـا خاصا، وأدرك جميـع أعضاء الفريق الرمزيـة التي يمثلهـا: فتاة مسيحية اختيرت لتكريم ولي مسلم. ذلك هو نموذج أجمر في الممارسة العملية.

تقدمنـا خلـف هيلي نحـو الضريح، نجـر أقدامنا جـرا وسط حشد الـزوار. غمرت المتعبديـن سحابـة من البخـور وهم ينثرون أوراق الـورد الأحمر والأبيض على الضريح ويربطـون أشرطـة زاهيـة الألوان علـى البوابات الحديديـة التي تحميه. وبعـد أن عدنا مـن الضريـح بقينـا في المقام لنتلو صـلاة صامتة خاشعـة. جلس جميع أعضـاء الفريق وقـد استغرقوا في أفكارهم، وبلغ مـن شدة تأثرهم أن اغرورقـت عيونهم بدموع البهجة وامتلأت نفوسهم بخشوع الرهبة والهدوء، كأنما تبخر الزمن. توسعت هوياتنا (كمسلمين ومسيحيـين وسيخ)، مع أنها بقيت سليمة، واندمجـت في هواء أجمر المسحور. كنا مجرد حجيج متحدين في كل واحد نتقاسم شعورا بالإله المشترك.

كانت موازنة سلة الزهر على رأس هيلي "تجربة مثيرة" : "أستطيع الشعور بنبضات قلوب وطاقات جميع زوار المقام. أحسست باتصال عبر ما لدي من طاقة مع البشر كلهم، وعـبر أوراق الورد التي نثرتها علـى الضريح، مع نجوم السماء ورمـال الشطآن. تلاشى المقـام وجسدي والألـوان كلها في الكون وتحولـت إلى شعور بهيج بالعـدم؛ هويتي لم تعد مهمـة هنا. أحسست باقترابي مـن الله، الواحد الأحد، مثلما شعر المتعبدون بقربهم منه جـل وعـ ". شعرت هيلي أن الولي "يدعوهـا" إلى مقامه، مشـيرة إلى القول الشائع في أجمر : لن تكون الزيارة ناجحة إلا إذا دعا الولي الزائر.

كانت الموسيقـى العذبة تأتي منسابة من الباحة إلينا، خرجنا وجلسنا على سجاجيد عتيقة تحت شجرة فواحة العطر، حين بدأت الأضواء والألوان تغمرنا كأننا في حلم. الموسيقى والأصـوات التي تمتدح رحمة وجلال الخالق عبرت عن تشوق البشر للاتحاد الروحي مع الله ومـلأت عيون من حولنـا بالدمع وهم يتمايلون بأجسادهم مع الإيقاع. وصف فرانكي

التجربة بأنها "انسحاب من العالم الذي كنت جزءا منه قبل ثوان معدودات. موسيقى وأصوات المسجد ربطتني بذلك الواقع الحقيقي، لكن أفكاري أخذت تنجرف بعيدا، كأنما تحملها الموسيقى إلى شعور نقي صاف، شعور بالسلام والأمان والسكينة. كنت أقف قدما في العالم "الحقيقي" وأخرى في مكان آخر. تشبثت بهذا الإحساس، مهما كان، مدة خمس عشرة دقيقة قبل أن أفتح عيني، فوجدت باقي أعضاء الفريق يجلسون قرب العازفين في الباحة وهلة من الزمن، يتبادلون الحديث ويحاولون التعبير بالكلمات عما كان يستحيل نقله بالكلام". سألت بهدوء أعضاء فريقي هل شعروا بالقلق بين هذا الحشد الكبير من الغرباء في ذلك الوقت المتأخر من الليل وسط راجستان. علقت هاديا قائلة: "نظرت إلينا النساء وأومأت رؤوسهن برفق وتهذيب فرددنا التحية بمثلها". الإشارة أصدق من العبارة. لقد نقلت هذه الإيماءات "فكرة أنه بالرغم من اختلاف دينكم وثقافتكم ولغتكم ولباسكم عني، ومع أنني قد لا ألتقي بكم مرة ثانية أبدا طوال حياتي، إلا أنني أقر وأفهم العوامل المشتركة لكينونتنا، ووحدة أصلنا، ومصيرنا المشترك. تلك الإيماءة كانت تعني لي: 'أستطيع الاتصال بك لأنك إنسان في نظري قبل كل شيء'".

في القرن الثاني عشر، حين حج معين الدين تشستي إلى قبر الرسول في المدينة للتأمل في طبيعة الخالق في واحد من أقدس الأماكن في الإسلام، ظهر النبي له في الرؤيا وحثه "على الذهاب إلى هندستان (الهند) لنشر كلمة الإسلام"، وسلم إليه رمانة تكشف الوجهة المختارة: أجمر. شرع تشستي فورا في أداء مهمته واشتهر بمرور الوقت بوصفه "ولي النبي في الهند". أدخل الإسلام دون إقصاء واستعداء الديانات الأخرى هناك، وهدى الهندوس إلى الدين الحنيف بواسطة السلام والحب لا السيف والفرض. ويمكن تلخيص فلسفته في شعاره: "الصلح للكل".

رحلتنا إلى أجمر واستقبالنا هناك شهادة تثبت فلسفة تشستي، وسمعته وسلطته، خصوصا القبول بالآخر الذي يقع في صميم نموذج أجمر - الذي ألهم دارا شيكوه وأكبر. تبدى القبول والتسامح مرة أخرى في اليوم التالي، حين رتب تريديفيش لنا زيارة إلى معابد الهندوس والسيخ الشهيرة في بوشكار المجاورة، وهي بلدة بديعة المنظر طليت مبانيها باللون الأبيض، تقع في مركزها بحيرة "مقدسة". في المعبد الهندوسي، راقبنا

النساء وهن يسبحن في البحيرة لتطهير أنفسهن، ورأينا الأبقار تتجول بحرية في الشوارع. في معبد السيخ، المسمى غوردوارا سينغ سابا، جلسنا على الأرض مع الزوار الآخرين وتقاسمنا وجبة طعام مشتركة قدمها الرهبان.

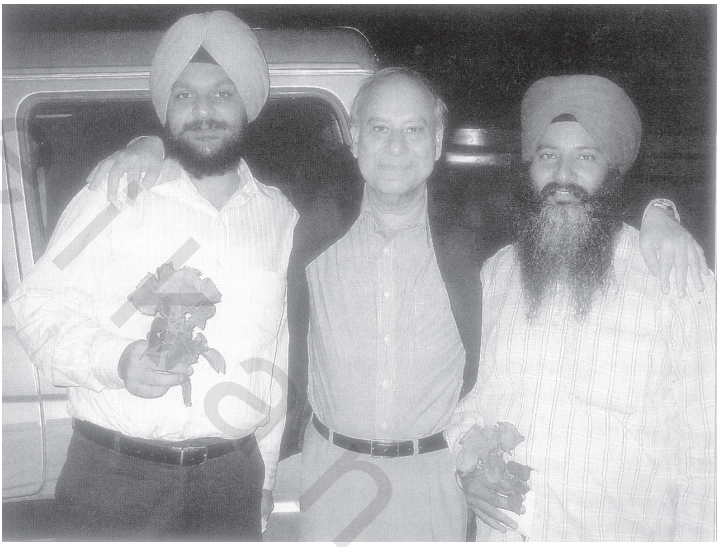

أكبر أحمد يتلقى الترحيب في الهند من طالبه السابق، تريفيديش سينغ (من طائفة السيخ). الصداقة تعبر عن الروابط المشتركة بين مختلف الديانات على الرغم من الصراع بين السيخ والمسلمين، وتعطي أملا بالمستقبل. ويبدو في الصورة (إلى اليمين) سائق الفريق.

بعد ذلك، سمح الرهبان لهاديا بالصلاة في الفناء، مع أنه من غير المعتاد أن يصلي مسلم في معبد السيخ. وقف تريديفيش قربها يحرسها. لقد جعلت تلك التجربة، وصداقتها مع تريديفيش وسوشا (السائق) والرحلة إلى الهند برمتها، جعلت هاديا تغير رأيها بطائفة وديانة السيخ. كتبت تقول: "حين كنت فتاة صغيرة، حسبت أن السيخ يكرهون المسلمين. لكن بعد العلاقات التفاعلية التي جمعتني مع العديد من السيخ خلال هذه الرحلة، والاستمتاع بحسن ضيافة والدة ووالد تريديفيش، تعلمت أن أعجب وأحترم التزامهم دينهم، الذي يحمل بالفعل أوجه شبه كثيرة بالإسلام". دل تعليق هاديا على فطنة ووعي، خصوصا حين نأخذ بالاعتبار أنها لم تزر هذا الجزء من العالم قبل.

كان تريديفيش يقول أمام الجميع إنه "ابن أخي"، تعبيرا عن حبه لي مذ كان طالبا أدرسه في واشنطن. وناقش الروابط التي تجمع الصوفية مع أصول ديانة السيخ

في كتاب نشره، وصدره بإهداء لي يقول: "إلى عزيزي السيد / شاشا وأسرته (شاشا تعني العم في جنوب آسيا): بفضل إلهامك / ودعمك/ وتشجيعك فكرت بتأليف هذا الكتاب"[9]. لقد سمح إيجاد ما يدعوه الأنثروبولوجيون بـ"الصلة القرابية المتخيلة"، لتريديفيش أن يكتب هذه العبارة الجريئة التي تسمو على حدود العرق والدين. ففي بيئة تشابه فيها العلاقات العدائية السائدة تقليديا بين السيخ والمسلمين تلك التي تجمع الفلسطينيين والإسرائيليين، ويعد فيها السيخ (كما كان يحدث في مرحلة شبابي) أعداء الإسلام، كانت تلك عبارة بالغة الأهمية الدلالية، ويرغب فيها كل من يسعى للفهم المتبادل.

رحب بنا تريديفيش ووالداه أجمل ترحيب في الهند، ضمن روح "الصلح للكل". فدافع الصوفية وجذورها الروحانية القائمة على التسامح والقبول بالكل حاضرة بوضوح في الديانات الأخرى.

نقول مرة أخرى للتوكيد، إن نموذج أجمر شمولي كوني، لا تقيده حدود الحقب ولا الجغرافيا. وفضلا على المتصوفة المشهورين، مثل تشستي والأمير دارا شيكوه، الذين غيروا سيرورة التاريخ، يمكن العثور عليهم بسهولة في أرجاء أخرى من العالم الإسلامي. على سبيل المثال، كان العراق الحالي وطنا لمتصوفة شهيرة هي رابعة العدوية التي ولدت في أوائل القرن الثامن في البصرة. كانت رابعة البنت الرابعة لعائلة فقيرة. ووفقا للأسطورة، رأى والدها حلما يخبره فيه النبي أن رابعة سوف يحبها الناس وتصبح من الأولياء. ويبدو أنها انفصلت عن والديها حين كانت صغيرة وبيعت كجارية. وبسبب حسنها، نقلت إلى ماخور عانت فيه إذلالا عاطفيا وجنسيا، لكنها حافظت على عشقها لله وإيمانها به. وحين بلغت الخامسة عشرة، أعتقها رجل رعاها وأدرك طاقاتها الروحية، ثم كرست سنواتها الباقيات للسعي إلى الله والعشق الإلهي والحب الكوني. ورفعتها الأسطورة إلى مستوى الأولياء ونسبت معجزات إليها. وتعززت مكانتها الرفيعة بسبب زهدها بالعالم المادي، وكانت ترفض دائما هدايا الأتباع وعطايا المعجبين. وحين أعطاها أحد الأتباع كيسا مملوءا بالذهب، قيل إنها أجابت بأسلوبها البسيط الساذج: "إذا تركته سيتجمع عليه الذباب كأنه روث حصان، وقد تنزلق عليه قدمي وأنا أرقص"[10].

سيردد المتصوفة الذين اتبعوا خطى رابعة شعرها المترع بالعشق الإلهي. في قصيدتها "السماء منحتني قلبها"، تتساءل لماذا نفكر بالله كثيرا؟ ونتكلم عن العشق كثيرا؟ فترد عينها قائلة إن ثمة شيئا غائبا عن كل ما تبصره. فتبحث عن الشفاء فتجده في جماله وبهائه تعالى، وتجد العلاج الشافي في العشق[11].

بعد بضعة قرون، ولد صبي في جزيرة جاوا لعائلة أرستقراطية تتحدر من إحدى الممالك الهندوسية القديمة في إندونيسيا. ووفقا للأسطورة، ذاعت شهرة الصبي كمقامر ولص في مرحلة الشباب، وأنفق ماله على العاهرات. في أحد الأيام رأى رجلا غريبا – عربيا كما تقول الحكاية – فحاول سرقته. عنفه الرجل قائلا إن الرغبة والممتلكات الدنيوية لا قيمة لها، وإننا نعيش حياة زائلة كلمح البصر ونرحل دون أن نأخذ شيئا. أشار الغريب إلى شجرة تين (البنغال) التي بدأت تتحول فجأة إلى ذهب، وتقطر من أغصانها الأحجار الكريمة. في تلك اللحظة، نزل "الوعي" على الشاب، وهو تعبير محلي يدل على إدراك حقيقة أن العالم المادي مجرد وهم زائل، ومن ثم طلب من الغريب أن يعلمه المعرفة الروحية. أجاب هذا بسؤاله هل يملك قوة الإرادة وقدرة التحمل لأداء المهمة. رد الشاب بالإيجاب فطلب منه الغريب أن ينتظر عودته قرب النهر. بقي الشاب في تلك البقعة سنوات عديدة. نمت حوله الأشجار وفاضت المياه وغارت. توقف الناس ليحدقوا إليه، ويلمسوه، ثم يسيروا في طريقهم. لكن بدا أن الشاب في غشية. وحين عاد الغريب في نهاية المطاف، أعلن التلميذ معلما، وسماه كاليدجاغا، وأن من المقدر عليه نشر الإسلام. في الحقيقة، استطاع كاليدجاغا دون معونة أحد نشر الإسلام في جاوا، التي هي الآن جزء من أكبر أمة إسلامية في العالم.

خلافا لتشستي ورابعة العدوية، اللذين ترعرعا ضمن تراث المعرفة والثقافة والتاريخ الإسلامي، بدأ كاليدجاغا مهمته من نقطة الصفر، وبدا أسلوبه ومقاربته للدين الجديد أكثر تأملا وقربا من تراث ديانات الهند. وحتى في هذه الحالة، كان تأثير تعاليمه وشخصيته مساويا في انتشاره في الشرق الأقصى لانتشار تأثير جلال الدين الرومي في الشرق الأوسط. ويعد كاليدجاغا الرجل الذي نقل جاوا من "عصر الهندوسية" إلى "عصر الإسلام". وبغض النظر عن الواقع التاريخي، يجسد المتصوفة الثلاثة – رابعة

في الشرق الأوسط، وتشستي في جنوب آسيا، وكاليدجاغا في الشرق الأقصى - الصيغة التأملية والسلمية والمتقشفة والتراحمية للإسلام في الفلكلور الشعبي.

ما يزال نموذج أجمر، بزهده التقشفي ورسالته الكونية القائمة على القبول والتسامح، قادرا على البقاء في خضم ما يميز العصر الحديث من نزعة استهلاكية واضطراب وغضب وجشع وجهل. اطلع العديد من الغربيين على تعاليم جلال الدين الرومي بفضل تقانة العولمة. وإذا كانت مبيعات كتبه (وأقراص الفيديو المدمجة) خلال السنوات العشر الماضية تعني شيئا فهو أنه الشاعر الأول للمسلمين وغير المسلمين في الولايات المتحدة، ومن بين المعجبين به أسماء شهيرة مثل مادونا وديبورا وينغر ومارتن شين. لقد انبثقت جاذبية الرومي العريضة من قبوله الحقيقي والأصيل بالديانات الأخرى كلها، مثلما عبرت عنه مجموعته الشعرية المسماة "قصائد المسيح"، وفيها يهدي واحدة من أكثر قصائده حماسة وتعاطفا ووجدانية إلى المسيح: حيث يعيش وتتجمع القلوب العظيمة الرحيمة. ثم يقول إننا باب لا يغلق أبدا، فإن عانيت ألما، ابق قرب الباب، وافتحه. وبعد ذلك يؤكد أن المسيح ليس سوى سكان العالم وكل شيء فيه[12].

يؤكد حب جلال الدين الرومي لتلك الشخصية الروحانية الحقيقية، يسوع المسيح، وشهرته الذائعة اليوم، قوة وتأثير نموذج أجمر. في الوقت ذاته، ما زال الصراع بين اورانغزيب وأخيه دارا، ونتيجته - انتصار الأول ومقتل الثاني - يلقي ظلاله على عصرنا. وفيما يتعلق بأولئك الهنود الباحثين عن أسباب تدعو لكراهية المسلمين، يعد اورانغزيب هدفا سهلا. وفي أعمال الشغب والاضطرابات الطائفية التي تحدث مرارا وتكرارا في الهند، تشير الجماعات المتطرفة بازدراء إلى المسلمين بوصفهم "أبناء اورانغزيب". أما فيما يتصل بدارا، فإن العالم لن يسمح بأن يضيع في غياهب النسيان هو أيضا. ولربما خسر المعركة على العرش، لكن رسالته ما تزال مؤثرة في معجبيه وأتباعه.

ميراث اورانغزيب

الرحلة الطويلة مع إعجاز قاسمي أوصلت الفريق إلى محطته التالية: ديوباند. ترجلنا من السيارة دون أن ندري ما الذي ينتظرنا. فوجئنا بترحيب كبير رجال الدين هناك بنفسه، مولانا انظار شاه كشميري، و"قادة أركانه"، الذين رافقونا بسرعة إلى

أحـد المساجد الرئيسة لحضور خطبـة. ولم يكن مولانا يحمل فقط لقب شيخ الحديث في ديوبانـد - وهـذه أعلى سلطة مرجعية فيمـا يتعلق بسنة النبي - بـل يرأس تنظيم علماء الهنـد الذي يقع مقره في نيودلهي أيضا. وهذا يعنـي أنه سلطة مرجعية للسنة النبوية في ديوباند ورئيس تنظيـم يضم علماء الدين على المستوى الوطني في الهند. دخلنا بصحبة المرافقـين إلى قاعة صلاة رحبـة في المسجد احتشد فيها الطلاب من مختلف الأعمارمن الصبية وحتى الشباب في عمر إعجاز.

في المسجد الرئيس في ديوباند، يتوضأ الشبان استعدادا للصلاة.

حـين قدمنـي إعجـاز إلى الحاضريـن، وجلسـت هيلـي وفرانكـي إلى جانبي على السجادة، تحدث بنبرة حماسية ومتعاطفة عن أعمالي وأعلن مدافعا عن تراثي بوصفي مسلمـا "هنديا" "عاد" إلى الوطن من الولايـات المتحدة، وتجاهل حقيقة أنني لم أمض سـوى السنـوات الأربع الأولى من عمـري في الهند. وبسبب التوتـرات القومية بين الهند وباكستـان، أهمـل إعجاز عمدا المرحلة الوسطى من حياتي التـي أمضيتها في باكستان. وفي إشـارة منه إلى التقدير والمكانة، ذكر الضيـوف المشهورين من غير المسلمين الذين استمعـوا إلى محاضرتـي في الجامعة الملية الإسلامية، وهي جامعة بـارزة وشهيرة في الهند، كان قد حضرها في اليوم الفائت، ربما لتقويم آرائي عن الإسلام شخصيا. وترأس

علـى المحاضرة مشير الحسـن، نائب رئيس الجامعة. كتم إعجاز في صدره أي تحفظات لديـه على أعمـالي. ورحب بنا مولانا ترحيبـا حارا وحددت المقدمـات التعريفية طبيعة وشكل باقي الزيارة.

أصغـى الحضـور بصمت لحديثـي باللغة الأوردية، وجلسوا باحترام علـى الأرضية المغطـاة بالسجاجيـد مركزيـن انتباههم على كل كلمـة. ثم سألوني خـلال جلسة تبادل الأسئلـة والأجوبـة عن الولايـات المتحدة والعـراق. ولم يتمكن فرانكي وهيلـي، اللذان لا يفهمان الأوردية، من تبين سوى بضع كلمات مثل "أمريكا" و"العراق"، وتساءل كل منهما عن كيفية استجابة الطلاب. وفي خلال دقائق معدودات وضح أن الكلمات غير ضرورية، مثلما لاحظ فرانكي:

المساجد أماكن مقدسة، وحقيقة السماح لنا، خصوصا هيلي بوصفها امرأة، بدخولها إشارة دالة على اللطف والكياسة والانفتاح لا يمكن أن تخطئها العين. لقد حاول الناس في ديوباند التواصل معنا، على الرغم من جميع الحدود والحواجز التي أقاموها بينهم وبين عالم غير المسلمين. أدركت أهمية مثل هذه المناسبة إلى حد أنني خفت أن أتحرك، لأنني أردت أن أترك أفضل انطباع ممكن. كانت تجربة مدهشة، ومهددة أيضا، إذ لم أكن أمثل نفسـي فقط بل زهاء ثلاثمئـة مليون أمريكي وملايين غيرهم في شتـى أرجاء "الغرب". حـين كنا في الطريق إلى المسجد، أتى الصبية والشباب الذين حضروا مناقشتنا للتحدث معـي، ومصافحتي، والترحيب بي في ديوبانـد. هنالك تلميحات دالة على انتشار الغضب في كل مـكان – لكـن بدا أن هؤلاء، وجميـع من قابلناهم، متأثرون تأثـرا حقيقيا بلقائي، وعاملوني باحترام شديد.

تناولنـا بعد ذلك غـداء شهيا في منزل الشيخ. وهناك لاحظـت الفصل الصارم بين الجنسين الذي يميز هذا الشكل من الإسلام. لم أشاهد تقريبا أي امرأة طوال اليوم؛ لم ترحب بنا النساء، ولم نر واحدة منهن خلال زيارتنا إلى المسجد. هنا، على طعام الغداء، كان الفصـل واضحا جليـا.. لم ألحظ الأمر في البداية، لكن هيلـي اختفت تماما. علمت أنها تزور نساء البيت اللاتي لم ألتق بهن قط. جلست أتناول الطعام وأتبادل الحديث مع مضيفينا، كان بينهم صبي صغير. سألني الرجال، والشيخ أيضا، من أين أتيت ورحبوا بي

بحـرارة. وكرروا طلب العـودة إلى المائدة وتناول المزيد من الطعام. وكانوا يقولون "يجب أن تجـرب هذه الدجاجة أو تتذوق هذا اللحم". ومثل زيارة المسجد، كانت للغداء في بيت رجل الدين أهمية دلالية. فقد دعاني أنا وهيلي لتناول الغداء في منزله ومع عائلته، ولربما تكون تلك أقوى إشارة دالة على كرم الضيافة يمكن أن يظهرها لنا.

فرانكـي مارتـن محاطا بطلاب من أعمار مختلفة في جامع ديوباند. اكتشـف فرانكي أن أي جو متوتر صادفه خلال الرحلة يتحسن دوما بعد تبادل الأفكار والتفاعل الاجتماعي.

في هـذه الأثناء، أخـذت هيلي لزيـارة مخدع النسـاء ولقاء حفيـدات الشيخ اللاتي تراوحـت أعمارهن بين السابعـة والخامسة عشرة، وارتدين اللباس التقليدي في جنوب آسيـا. لكن حـين سألتهن عن المدرسة والمواد المفضلة لديهـن، وحياتهن اليومية، قلن لها إنهن يشاهدن التلفزيون (الهندي غالبا) ويمضين وقتا على الإنترنت. وفيما يتعلق بمهنة بالمستقبـل، اختـارت الفتيات الصحافة والطـب والخدمة المدنية في الهنـد. وبعد العودة لتنـاول الغـداء، التقت هيلي مع نساء البيت، ومنهن والـدة الفتيات. كتبت ملاحظة فيما بعـد: "شكرتهـا على الجهد الذي بذلتـه لتحضير وجبة الغداء السخيـة، فقالت إن ذلك يشرفها، وعانقتني بحرارة. طلبت الفتيات عنوان بريدي الإلكتروني وسألن: 'متى تعودين إلى ديوبانـد؟'. طلبت مني أصغرهن عمرا أن أنحنـي كأنما لتهمس في أذني سرا؛ لكنها

طبعـت قبلة عذبة على خدي وقهقهت. ثم عدنـا إلى الجامعة لاستكمال جولتنا. انطبعت ذكرى ذلك الغداء في ذهني منذئذ وأكدت لي أن المسلمين ليسوا متشابهين كلهم، ولا حتى أولئك الذين يعيشون في ديوباند ذاتها".

بعـد الغداء، قمنا بجولـة في جامعة ديوباند، وهي مؤسسـة راسخة يبلغ عدد طلابها 3500 طالب، وتتميز بمرافقها الحديثة، ومهاجعها وصفوفها الرحبة، ومكتباتها التي تضم آلاف الكتب. فوجئت بالتنظيم والانضباط في كل مكان – لم تكن مدرسة دينية للهواة كما كنـت أظن. وبدا أن الطلاب يكرسون جل وقتهم للقرآن والإسلام، وفقا لرغبة مؤسسها. ولم يجادلـوا أبـدا في معتقداتهـم، فأعمالهم ومظهرهم وكلماتهم تشـي باستغراقهم في دراساتهـم. أحد الصفـوف التي زرناها كان محتشدا بعدة مئـات من الطلاب بأرديتهم وطاقياتهـم البيضـاء وقـد انهمكوا كليا بقـراءة القـرآن. ومن الإضافـات الجديدة إلى الجامعـة قسم الحاسب، حيث توجد قرابة عشرة أجهـزة تتصل هاتفيا بشبكة الإنترنت وهنالك مدرس متخصص بتصميم مواقع الويب وتطبيقات ميكروسوفت الأساسية.

في صف اللغة الإنكليزية، سنحت لنا فرصة التحدث مع قرابة أربعين طالبا، جميعهم مـن الشبان الملتحـين. ثم وزعنا الاستبيانات وانخرطنا في نقاش عن الإسلام والولايات المتحدة ومستقبل العلاقات بين المسلمين وأمريكا مع الطلاب والأساتذة. وثبت أن المناقشة قـد كشفت الكثير عـن الآراء والممارسات السائدة في ديوباند. ومثلمـا أوضح إعجاز من قبل، فإن مـن واجب أتباع ديوباند اتخاذ "الخطوة العملية التي تدعى بالجهاد.. لضمان العدالـة للمستضعفين ومساعدتهم في جهودهـم المبذولة لهذا الغرض.. والهدف مقاومة المستكبرين ومنعهم من ارتكاب أعمالهم الفظيعة"[13].

وخلافـا للغربيين، لا يميز أتباع ديوباند بين مـا يدعى بالمستكبرين على المستضعفين الذيـن تعد مقاومتهم فرضـا دينيا والبلدان المستقلة ذات السيـادة التي تحارب لأسباب سياسيـة. لكـن، مع تقـدم مناقشتنا مع الطـلاب، أمكنني رؤية أمـارات اللين والاعتدال علـى وجوههـم. وكنـت واثقا مـن أن أعضـاء فريقـي، أول أمريكيين يقابلهـم هؤلاء في حياتهم، يمكنهم المساعدة في التأسيس لعلاقة ودية وحوار بناء. جلسنا نتجادل، ونتبادل الأفـكار، ونتفاعل مع هؤلاء الشباب مدة ثلاثين دقيقة تقريبا. وتركز معظم النقاش على

"أمريكا" و"اضطهادها واستكبارها"، وكذلك على الإنترنت واستخدام الإنكليزية في شتى أرجاء العالم. بدأت ديوباند تدرس اللغة الإنكليزية كمادة في المنهاج منذ ثلاث سنوات، كما لاحظ أستاذ الفصل، وهذا هو الصف الثالث. أما إدخال "المواد العلمانية الدنيوية، مثل دراسات الحاسب واللغة الإنكليزية، فكان يهدف فعلا إلى نشر كلمة الإسلام"، مثلما أضاف. لكن المنهاج الدراسي متمسك بشدة بالهدف الأساسي المتمثل في الحفاظ على تقاليد ديوباند التراثية، على الرغم من إضافة التقانة والمواد الغربية. والقصد من وراء ذلك جعل الطلاب أقوى وأكثر قدرة في العالم فضلا على المسلمين في الهند.

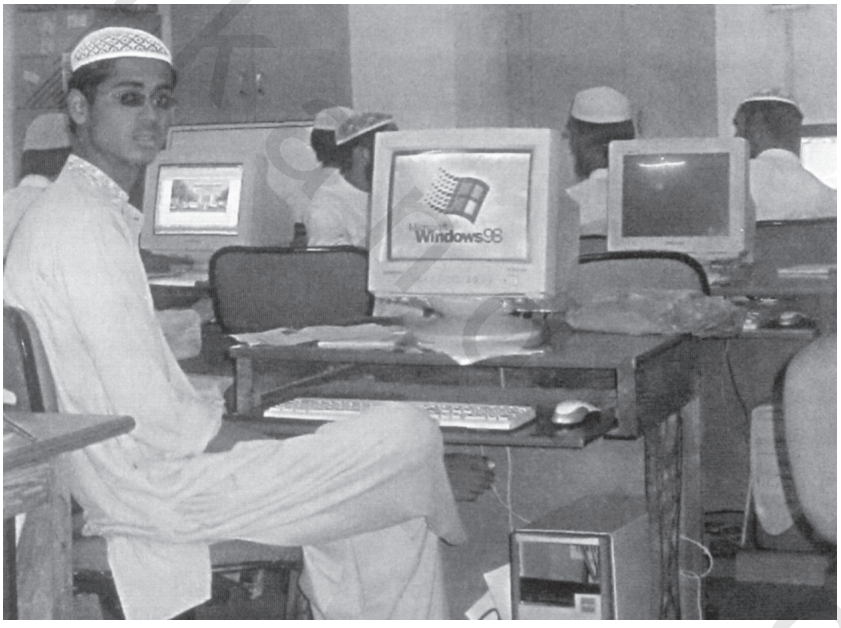

الطلاب يتلقون دروس علوم الحاسب في مختبر الحاسب في ديوباند. يعتقد الطلاب أن بإمكانهم عبر التقانة فهم الإسلام ونشر رسالته بصورة أفضل.

أكد لقاؤنا مع طلاب الصف الذين بدؤوا يتعلمون الإنكليزية منذ مدة قريبة إمكانية بناء الجسور حتى في الحالات المستبعدة، مثلما تروي هيلي:

مررنا بصف يحتشد فيه خمسمئة طالب يرتدون الأثواب والطاقيات البيضاء ويقرؤون القرآن، ثم دخلنا صف اللغة الإنكليزية حيث وزعنا الاستبيانات التي أعددناها لدراستنا. أجاب الطلاب عن الأسئلة – دون صياح أو إراقة دماء كما توقعت ذلك الصباح. وقبل أن

نغـادر، طلبوا منا أن نكتب على اللوح حكمة اليوم. كتبت عبارة تساعد على جمع الولايات المتحدة والعالم الإسلامي للعيش في سلام: "التعلم والتثقف أهم العوامل للسلام العالمي. دعونـا نتابع العمـل من أجل السـلام للجميع. السـلام عليكم". الحكمة أثـارت بصورة مفاجئـة هتافات تعـبر عن السرور والصداقـة. افترقنا كأصدقـاء - أمريكيان، وأستاذ مسلم، وطلاب أكثر المدارس الدينية تشددا ومحافظة في الهند".

أسست ديوباند لغرض معلن هو تدريب زعماء دينيين يكرسون جهدهم للتيار الغالب من الإسـلام أو الإسلام المتشدد وذلك كرد على الأزمة التي عصفت بالمجتمع الإسلامي في القـرن التاسع عشر[14]. وسيصبح هؤلاء كتابا ودعاة ومدرسين ينشرون ما تعلموه في الأمة في مسعى للحفاظ على التقاليد التراثية الإسلامية. ومن شروط القبول في المدرسة، أن يكـون الطلاب قد درسـوا الفارسية، وحفظوا القرآن، ونجحوا في امتحان الدخول. لم يقبـل فعلا سوى نصف الطلاب المرشحين. في السنـة الأولى، قبل ثمانية وسبعون طالبا، وازداد العدد فيما بعد ليبلغ قرابة 200 إلى 300 طالب في السنة، حتى وصل إلى المستوى الحالي (3500 طالب).

في البدايـة، كانت الدراسة تستمر عشر سنين، لكن المدة خفضت فيما بعد إلى ست. في ديوبانـد، كان - وما يزال - ينتظر من الطـلاب التخصص في ثلاثة مجالات تقليدية من الدراسـات الإسلامية: الحديث والقـرآن والفقه. كانت هناك بعض المواد الأخرى، لكـن أضيف اليوم المنطق والفلسفـة الإسلامية. تميز المدرسون علـى الدوام بالإخلاص والتفاني في التدريس مقابل أجر زهيد. كان العديد منهم من العلماء البارزين والنافذين في مختلـف أرجاء جنوب آسيـا، تخلوا جميعا عن وظائفهم المهمـة والمرتفعة الأجر. وعد معظمهـم التدريـس مهما إلى حـد دفعهم للعـودة إلى ديوباند والعمل مقابـل أجر زهيد راوح بـين 15-10 روبيـة في الشهـر (60 روبيـة= دولارا أمريكيا واحـدا حسب الأسعار الحالية).

بمـرور الزمـن، لم يعـد اسم ديوبانـد يرمز إلى نشـر التعاليم الإسلاميـة فقط، بل رعاية الحياة الروحية الداخلية أيضا. وبحلول نهاية القرن التاسع عشر، انتشرت المدارس المقامـة على نموذج مدارس ديوباند الدينية في طول منطقة جنوب آسيا وعرضها. وفيما

يتعلق بالسياسة، رفضت هذه المدارس فكرة تقسيم الهند التي شاعت في أربعينيات القرن العشرين وإنشاء وطن ديمقراطي مستقل للمسلمين، مقدمة الحجة على أن الله ليس له وطن أو دولة خاصة به.

مع تقدم العولمة، ربما دخل الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية في حقبة مأزومة ثانية، لا تختلف كثيرا عن تلك التي شهدها المسلمون عام 1857 حين كانت الهند تحت الحكم البريطاني. وجب على المسلمين آنذاك أيضا تقرير هل يسيرون على طريق الاندماج مع العالم الخارجي أم لا. فاختاروا المحافظة على تقاليدهم التراثية وهويتهم الإسلامية حتى على حساب المكسب المادي والسياسي. ويجب على ديوباند اليوم الاستجابة للعولمة حتى إذا اكتفت بالحد الأدنى من التفاعل مع العالم الخارجي، وردة فعلها تنطلق من الدوافع والمواقف نفسها التي أسست عليها.

وجدنا ديوباند واضحة بصورة لا لبس فيها فيما يتعلق بإدراكها الذاتي وهويتها. فشبابها - وإن بقيت نساؤها مستبعدات - يربطون بفخر واعتزاز نسبهم الإيديولوجي بشاه ولي الله، والإمبراطور المغولي اورانغزيب (يفخرون بصورة خاصة بعرض نسخة من القرآن مكتوبة بخط يده في خزانة خاصة في المكتبة)، وابن تيميه، ثم النبي مباشرة. وكذلك حال الطالبان، وأسامة بن لادن، وأعضاء "القاعدة" الذين يربطون أنفسهم بالنسب الروحي ذاته ويقدمون حجة مشابهة على أن التغيرات في العالم بدع مكروهة وضارة بالإسلام، الذي لا يمكن الحفاظ عليه إلا بالعودة إلى البدايات والأصول، والكتاب والسنة. ولذلك، تصف ديوباند نفسها على موقعها على الإنترنت بأنها "حاملة مشعل النهضة الإسلامية.. فهي من ناحية تمثل الدين القويم.. والصراط المستقيم والمعرفة بالإسلام، ومن ناحية ثانية تقف كـ'رمز للهداية' في وجه الطوفان الرهيب للكفر والشرك والردة الفكرية"[15]. أما الفارق بين الآن والحقبة الماضية تحت الحكم البريطاني فهو أن أتباع ديوباند آنذاك رفضوا رفضا قاطعا كل ما له علاقة بالتغريب، في حين يتضلعون اليوم من التقانة الغربية دون التخلي عن معتقداتهم التقليدية. وبوجود مبادئ وأهداف واضحة المعالم للمسلمين كأمة، يستطيعون استخدام التقانة دون خسارة إحساسهم بهويتهم. وهم يستخدمون تقانة الغرب لمحاربته بواسطة جهاد معولم جديد يستخدم

الإيديولوجيا لا السيف. لكن في البلدات البعيدة عن دلهي، تستمر حياة المسلمين في اتباع الطرق التقليدية والبسيطة اعتمادا على دراسة الإسلام.

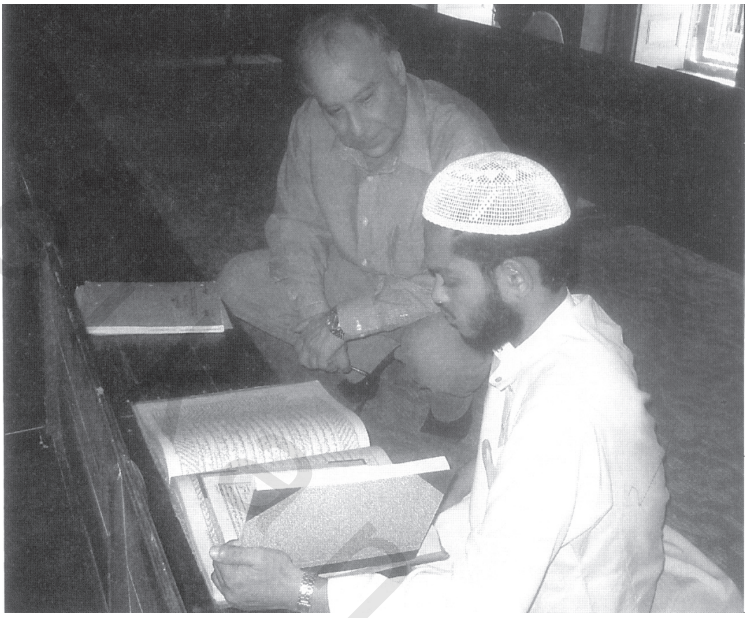

في المكتبة في ديوباند، أكبر أحمد يتابع دارسا للقرآن. تتبع هناك الطريقة التقليدية في تدريس القرآن وعلومه، حيث يجلس الطالب على الأرض ويطلب منه حفظ القرآن عن ظهر قلب.

ومع أن معظم البلدان الغربية ترغب بما تتركه فكرة تخلف ديوباند وضعف فهمها لوسائل الإعلام العالمية من راحة وطمأنينة، إلا أن طلاب ومدرسي ديوباند لا يعرفون كيفية استخدام التقانة الحديثة فقط، بل كيف يستعملها العالم الخارجي كأداة للتأثير أيضا. فقسم علوم الحاسب الذي رأيناه كان حديثا ومسايرا لآخر التطورات؛ والموقع على الإنترنت حر في وشامل، يضم صفحات للمناقشة والمعلومات عن رسالة الدين التاريخية والفلسفية والسياسية. ويفخر كبير محرري الموقع، إعجاز، بأنه أكثر مواقع اللغة الأوردية قراءة في الهند. ونظرا لأن المؤسسة برمتها تعتمد في إدارتها على هبات وتبرعات قليلة من الناس العاديين (وأعدادهم كبيرة جدا في الهند)، يخصص الموقع صفحة كاملة للتوجيهات المتعلقة بإيداع التمويلات في مصرف مركزي. يمكن أيضا طلب الحصول على نشرات ومطبوعات متنوعة من الموقع، ومنها كتب ومجلات وصور الجامعة. توزع هذه المواد على شرائح واسعة من السكان في شتى أرجاء العالم، لتنشر رسالة ديوباند

عـبر هذه العملية. أما نظافة وحجـم المكان، حيث يعيش ويدرس عدد ضخم من الطلاب مجانـا، فأمر مؤثر فعلا. وكذلك الحال فيما يخص المسجـد الذي شيد حديثا، وقيل إنه ثاني أكبر مسجد في الهند، واستمدت عمارته وحيها من تاج محل.

بعـد أن عرضـ إعجاز الفكرة في ديوباند، صرت أقـدم للمسلمين بوصفي "أكبر الله أبـادي" للإشـارة إلى أننـي "ابـن الأرضـ"، الذي ولـد في مدينـة الله أبـاد التاريخية علـى نهر الغـانج. واعتاد المضيفـون رواية سيرتي الذاتيـة مع المبالغـة في جزئها المتعلق بجنـوب آسيـا، وبعـد ذكر دراستـي في بريطانيا ونشاطـي الحالي في الولايـات المتحدة، يقولـون بحماسة عاطفية: "والآن نقدم أكبر الله أبادي الذي عاد إلينا". كنت أتأثر تأثرا بالغـا، لكن يضحكني استئصال الجزء الباكستاني من حياتي. لقد شعر المسلمون الهنود بالاعتـزاز والفخـر بفكرة وجود باكستـان ذات مرة، لكنهم في العقـود الأخيرة فقدوا ما لديهـم من آمال وأحلام فيما يتعلق بإمكاناتهـا واحتمالاتها. وتعرضوا للمعاناة بوصفهم "باكستانيين" على أيدي الطوائف الهندية، خصوصا في أوقات الاضطرابات والفوضى.

كان جواهـر لال نهـرو، رجل الدولة الذي حاز شهرة عالميـة وأول رئيس وزراء للهند، يقـول إن سـر الثقافة الهنديـة يكمن في قدرتها علـى الترحيب بالغربـاء. ووفقا لتعريفه للحضـارة الهندية، فإن سمتها المهيمنة هي التركيب والجمـع لا المواجهة والمجابهة[16]. وكان على صواب.

ومـع ذلك، وبسبـب خلفيتـي الباكستانية - وبعـد الاستقبال الحار الـذي تلقيناه في باكستان - نبهت أعضاء فريقي وطلبت منهم الاستعداد لمواجهة أي احتمال. لكن لم يكن ثمـة داع للخوف، فقد غمرنـا سحر وكرم ضيافة الهنود. وسـر المسلمون منهم على وجه الخصوص بوجودي بين ظهرانيهم.

لفهـم كيـف تؤثر ديوباندفي أحـداث العالم، نحتـاج إلى تفحص مركـز تعليمي آخر استمـد وحيـه من ديوبانـد لكن يقـع في باكستان. ففي مـكان لا يبعد كثيرا عـن بيشاور - علـى الطريـق الرئيس المـؤدي إلى إسلام أباد -تقـع الحقانية، وهي واحـدة من أكثر المدارسـ الدينيـة تطرفا وعداء لأمريـكا في هذه المنطقـة المضطربة[17]. هنـا، تستعاد دروسـ التاريخ عبر المعـارك والمناوشات على طول الحدود الأفغانيـة - الباكستانية. من

هذا الموقع يستطيع الطلاب عبور الحدود ليشكلوا قوة مقاتلة مع الطالبان كلما احتاجوا إلى تعزيزات. وتفاخر الحقانية بأن من أهم خريجيها الملا عمر، زعيم الطالبان، وتدرك تماما الحقائق السياسية الكبرى المحيطة بالأحداث التي تجري في المنطقة. أما مدير الحقانية، مولانا سمي الحق، فيخبر زواره أنه يغلق أبواب المدرسة ويأمر طلابه بالذهاب إلى أرض المعركة تلبية لدعوة الطالبان: "إذن، تمثل اكورا خاتاك (البلدة التي تقع فيها المدرسة) من جوانب عدة كل ما يخشاه ويمقته صناع السياسة الأمريكية في هذه المنطقة، معقل المقاومة الدينية والفكرية وأحيانا العسكرية – على شكل طالبان – للسلام الأمريكي وكل ما يمثله"[18]. ويعتقد مولانا سمي الحق أن التدخل الأمريكي في العالم الإسلامي قد استفز غضب وحماسة المسلمين، ومن ثم أجبرهم على البحث عن أجوبة لمشكلاتهم ضمن إطار تراثهم، وهذا أمر مفيد لإحياء الإسلام: "لقد أيقظ بوش العالم الإسلامي برمته. نحن ندين بالشكر له"[19]. ولا يخفي مولانا غضبه على مشرف بسبب فساده و"تلبية رغبات" أمريكا.

شاهدنا أدلة على قوة نموذج ديوباند طوال رحلتنا. الأحزاب الإسلامية تكسب مزيدا من الأصوات في كل انتخابات تجري، وتحظى بالشعبية والقوة في مختلف بلدان العالم – في فلسطين ومصر وإندونيسيا وماليزيا مثلا. وتمكنا من لقاء بعض أعضاء هذه الأحزاب. عبد اللطيف عربيات، الأمين العام السابق لجبهة العمل الإسلامي التي فازت بقرابة 20% من مقاعد مجلس النواب الأردني، بدا وكأنه يردد صدى أفكار إعجاز في ديوباند. الإسلام بحاجة إلى إحياء، كما يؤكد عربيات، خصوصا وهو يتعرض للهجوم من الغرب، لاسيما إسرائيل الرابضة على حدود الأردن. فإسرائيل والولايات المتحدة تحاولان تدمير الإسلام كما قال. ووصف المؤامرة على الإسلام التي تستهدف إبقاء المسلمين في حالة انقسام وتشظ وتقاتل. واتهم الرئيس بوش بشن "حملة صليبية" على المسلمين، مشيرا إلى استخدام الرئيس تلك الكلمة. ولاحظ أن الإسلام في حالة ركود وانحطاط لأنه لم يعد صادقا مع ذاته؛ لذلك يحتاج المسلمون إلى العودة إلى النموذج المركزي الذي يحتذى مثاله، ألا وهو نبيهم وكتابهم الكريم.

لكن مثلما أصبحنا نتوقع من أحد ممثلي نموذج ديوباند، لم يكن عربيات متعصبا ومنغلقا كما تصوره وسائل الإعلام. فبدلا من رفض الدولة برمتها، كما فعلت ديوباند

في الماضي، وافق على ملك الأردن، عبد الله، الذي علق صورته في مكتبه في عمان. وأقر بأن الأسرة الهاشمية الحاكمة وفرت الاستمرارية والاستقرار، وهما من العوامل المهمة في هذه المنطقة المضطربة. وقال إنه منفتح على التأثيرات الفكرية القادمة من خارج العالم العربي، مشيرا إلى حماسه لمحمد إقبال الشاعر والفيلسوف في جنوب آسيا، ودولة باكستان الإسلامية، مع أن حزبه يعترف بصلاته مع الأخوان المسلمين في مصر. بل يفاخر بحياة موسوي أول امرأة "إسلامية" تدخل البرلمان في المنطقة، التي قابلتها بعد وقت قصير من انتهاء اللقاء مع عربيات. وهذا يظهر أن نموذج ديوباند التقليدي المتشدد يغير موقفه للمشاركة في الانتخابات الديمقراطية والسماح للمرأة بالمشاركة في الحياة العامة. حين جلست لأتحدث معها في أصيل اليوم نفسه، رددت الموضوعات الإسلامية الكبرى التي انبثقت في مناقشاتنا في ديوباند. فحتى ديوباند، التي سمت ذات يوم عن حضيض السياسة، تعبر الآن عن اهتمام جديد بدخول معتركها في الهند، وأقام أتباعها روابط مع عدد من الأحزاب الدينية.

مع أنني لم أتمكن من زيارة السعودية وإيران خلال هذه الرحلة لأسباب لوجستية، لكن الرحلات السابقة لهذين البلدين أكدت انتشار الوهابية – المشابهة لنموذج ديوباند – في المجتمع السعودي، في حين تبنى الإيرانيون مزيجا معقدا من النماذج الثلاثة المقدمة هنا كلها. فنموذج عليكره، الذي هيمن على إيران خلال حكم الشاه، تراجع الآن ليحل محله نموذج ديوباند. وتفاخر الثقافة الإيرانية أيضا، خلافة للسعودية، بأدب صوفي وروحاني وعالمي ثري يشمل أعمال شخصيات أدبية شهيرة، مثل جلال الدين الرومي والفردوسي وحافظ. تحظى السعودية وإيران بمكانة مهمة بين البلدان الإسلامية لأسباب عدة: ففي كلتيهما النفط، والأماكن المقدسة والأهم أنهما تمثلان المذهبين الرئيسيين في الإسلام، السني والشيعي. وبالطبع، تحظى السعودية بمكانة فريدة للمسلمين جميعا لأنها موطن أقدس مدينتين في الإسلام: مكة والمدينة.

تمارس السعودية وإيران تأثيرا نافذا في سياسة الشرق الأوسط وتحاول كل منهما تكريس هيمنتها الإقليمية؛ وكلتاهما تفرض إطارا عقديا/لاهوتيا على ما هي في الأساس مجابهة سياسية، ولذلك تدعم مزاعمها بتمثيل التيار الغالب والمتشدد من الإسلام وتدين

غـيره بوصفه انحرافـا ضلاليا. أصبح السعوديـون المدافعون عن حمـى الإسلام السني وتفسـيره الحرفي المعروف في العالم باسم الوهابية. وبلغ بعضـ أتباع المذهب حد اعتبار حتى الصوفية وغيرها من المذاهب والنحل خارجة على الملة. وفي مقابل الموقف السعودي، يعلن الإيرانيون، حملة المذهب الشيعي، أنهم أصدق من يمثل الإسلام الصحيح. ترسخت هـذه الآراء المتضاربة في البلدان الأخرى أيضا، وأفرزت في بعض الحالات نتائج محفوفة بالخطـر. ففـي باكستان مثلا، يذبح السنة والشيعة بعضهـم بعضا في الأسواق والمساجد خلال أعمال العنف التي تتفجر بين الحين والآخر.

لكن تتقاسـم السعودية وإيران عاملا مشتركا واحـدا: في أذهان الغربيين، أصبحت الدولتـان رمـزا لما هـو خاطـئ في الإسـلام، وتخضعان لهيمنـة المتطرفـين والمتشددين وازدواجيـة المعايـير. وليس من المفاجـئ أن يقدم المعلقون الغربيـون الحجة على أن هذه الظـروف تؤدي إلى الفوضى، ملاحظين أن الإيرانيين أخـذوا الديبلوماسيين الأمريكيين رهائـن وحبسوهـم شهورا في ظـروف مروعة، وأن معظم خاطفـي الطائرات في الحادي عشـر من سبتمبر هـم من السعوديين. لهذا السبب، كما يستنتـج هؤلاء المعلقون، يتحمل الإسلام الذي يدرس في هذين البلدين المهمين مسؤولية تطرف المسلمين.

في أعقـاب الحادي عشـر من سبتمبر، انبعـث نوع من الوطنيـة في الولايات المتحدة والعـالم الإسلامي كليهما. ففي المجتمعات الإسلامية التي زرناها، تحدثنا مع العديد من الأشخاصـ الذين يمثلون ما أدعوه بموقف ديوباند. كانت لهؤلاء رسالة واضحة وإحساس بـين بالهوية: فهم حماة الإسلام الجدد، الذين تعهـدوا لا باستعادة الإسلام إلى العصر فقط بل بالذب عن حياضه أمام جميع الهجمات. أما فكرتهم عن الحفاظ على الإسلام فتتفاوت بين درء "غزو الثقافة الغربية" وإقامة الخلافة أو تأسيس مملكة إسلامية عالمية. وفي الحـد الأقصى، يؤيد بعضهم حتى استخـدام العنف دفاعا عن الإسلام. وبمعنى من المعاني، كانوا يرددون كلمات النبي فيما يتعلق بالأمة التي شبهها بجسد واحد إذا اشتكى منـه عضو تداعى له باقي الأعضـاء بالحمى والسهر. وعززت الأحـداث التي جرت منذ الحادي عشر من سبتمبر فكرة الأمة التي تتعرض للهجوم، ومن ثم زودت نموذج ديوباند بعـدو مشترك ومنصـة انطلاق صالحـة لتوحيد أمـة المسلمين. ولسـوف يستمر نموذج

ديوبانـد، مثلمـا سمعنا طوال رحلتنا، في الدعاء لبوش لأن مـا يفعله يجدد ويحيي ويوحد علـى ما يبـدو عالم الإسلام. إذن، يشهد نموذج ديوباند ازدهـارا في عصر العولمة نتيجة لقوى العولمة ذاتها.

أعضاء الفريق أمام بوابة جامعة عليكره في الهند. أسست الجامعة في القرن التاسع عشر على نمط جامعة كيمبردج، كاستجابـة إسلامية للتعليم الحديـث. تخرجت في الجامعة أجيال من الزعماء السياسيين والمفكرين الأكاديميين في جنوب آسيا.

ركوب الموجة أو الغرق

في مرحلـة الشبـاب، انتسبـت إلى كليـة كريستشن فورمـان في لاهـور، وهي واحدة مـن الكليـات المرموقة في باكستان. أسسـت الكلية أمريكيون، وشيـدت على نمط جامعتي اكسفـورد وكيمـبردج، بمناهجها التدريسية وعنابرها وساحاتهـا المربعة وملاعبها. كان الطـلاب يرتدون أحدث الأزياء الأوروبية، ويلعبـون التنس على ملاعب خضراء، ويمثلون في مسرحيـات شكسبير الكلاسيكية، ويتجادلـون بلغة إنكليزية كانت الملكة ذاتها ستفخر بها. شعرنا بأننا قادرون على منافسة أي شخص على أي مستوى؛ فإذا لم نكن أفضل من الغرب، فنحن بالتأكيد لسنا أدنى منه. في الوقت ذاته، كنا نعتز بتراثنا الإسلامي، ونؤدي

الصلـوات الخمس، ونصوم رمضان. كنا نستمد قوتنا مـن جامعة عليكره، المؤسسة على فكـرة أن السبيل الوحيـد لتحقيق النجاح أمام المسلمين هو مقارعـة البريطانيين، وتعلم لغتهـم، واللعب وفقـا لقواعدهم في التجارة والأعمال والسياسـة. كان أستاذ التاريخ من خريجـي عليكره واعتاد التحدث عن محمد علي جناح وروابطه مع جامعة عليكره بتعابير وهاجة. ملأنا شعـور بالثقة بمستقبلنا ومستقبل باكستان. وفي الحقيقة، اعتلى اثنان من الطـلاب الذين درسوا في الكليـة خلال مدة دراستي هناك تقريبافـاروق ليغاري وبرويز مشرفسدة الرئاسة في باكستان.

في آذار/ مارس 2006، حـين ذهبنا للقـاء بعض طلاب وأعضـاء الهيئة التدريسية في جامعـة عليكره، توقعت أن يشابـه المكان صورته في مخيلتي في مرحلة الشباب. وما إن وصلنـا حتى ذهبت هاديـا وفرانكي لتوزيع الاستبيانات والتحـدث مع الطلاب في الحرم الجامعـي. وحين رجعـا، كانا يرتجفان من شـدة الغضب والاهتياج. فحـين كانا يوزعان الاستبيانات خارج كلية الهندسة، أحاطت بهما جمهرة كبيرة من الطلاب الذين ازدادت عدوانيتهـم باطراد. وحاول فرانكي وهو يحمي هاديا منهـم، أن يشرح أهداف المشروع، مؤكدا أنهما في رحلة أكاديمية وليسا مرتبطين بأي حكومة:

صاحوا في وجهي مقاطعين: "هل صوّت لمصلحة بوش؟".

سألت محاولا إعادة السؤال إليهم:

"لماذا تفكرون ببوش؟".

صرخ أحد الطلاب في الصف الأمامي: "لا، لا. هل صوت لمصلحة بوش؟".

أجبـت إن نصـف الأمريكيين لم يصوتوا لبوش، وإن أمريكا بلـد ديمقراطي. كانت هاديـا خلفـي تتحدث مع بعض الطـلاب الآخرين. سألـوا عنها فقلت لهـم إنها أمريكية عربيـة ومسلمـة. لم يفهمـوا ما عنيته تمامـا. إذ لم تتجـاوز أعمارهم الثامنـة عشرة أو العشريـن، ولم تكن لغتهـم الإنكليزية تساعدهم على الفهـم، ولا على مستوى الخريجين الذيـن كنا نتحـدث إليهم قبل عشر دقائق فقـط. فالعديد منهم لا يتحدثـون الإنكليزية وظلـوا يحدقون إلينا. كان معظمهم يرتدون الثياب الغربية، باستثناء رجل وبضعة طلاب

بالملابس التقليدية.. ونظرا لأنهم على ما يبدو يريدون التحدث عن الولايات المتحدة، سألتهم عن رأيهم بها.

قال أحدهم: "بوش إرهابي، يقتل الأبرياء ويهاجم الإسلام".

كان الطلاب ما يزالون يحيطون بي من كل جانب وازداد عددهم إلى قرابة الخمسين في أقل من دقيقة. لم يظهروا نحوي عداء سافرا لكن مشاعرهم لم تكن ودية. حاولت أن أطرح عليهم أسئلة الاستبيان.

"من هم النماذج التي يحتذى مثالها برأيكم؟"

صاح أحدهم بلهجة عادية لكن كأنه أراد استفزازي أيضا: "أسامة بن لادن!".

أومأ الكثيرون رؤوسهم موافقين.

قلت بصوت مرتفع حتى يسمعه الحشد: "هل يتكلم باسمكم؟".

صاح عدد من الطلاب: "بلى!". في حين أومأ الذين لا يفهمون الإنكليزية برؤوسهم. إذ فهموا هذا الجزء من الحديث. واتفق الجميع على ذلك.

سألتهم: "لَم تختارون بن لادن؟".

قال الرجل الذي يرتدي اللباس التقليدي شيئا عن قوته ووقوفه في وجه الغرب، وإن الولايات المتحدة لم تتمكن من إثبات جميع التهم الموجهة إليه.

"هل لأحد آخر نماذج يحتذى مثالها؟".

تعددت الأسماء. اختار أحدهم الرئيس أحمدي نجاد وذكر آخر معمر القذافي، في حين ذكر الرجل ذو اللباس التقليدي عددا من الزعماء المسلمين الهنود الذين لم أتذكر أسماءهم. عندما قالوا لي إن قدوتهم هو بن لادن، بدا الرجل الذي تحدث أولا وكأنه يقول "ما رأيك بذلك؟".

سألتهم عن التقانة. كان من الصعب طرح الأسئلة لأنهم أحاطوا بي عن قرب وداوموا على مقاطعتي. أقروا بأنهم يقبلون التقانة الغربية (فهم طلاب في كلية الهندسة) لكن يرفضون الثقافة الغربية.

obeikandl.com

قال الرجل ذو اللباس التقليدي: "نحن نرفضها!".

صاح آخر: "إنها إباحية!".

كانـوا من الشباب الذيـن يفتقرون إلى اللباقة وآداب السلوك، ولم ينضجوا بعد. ومع ذلـك فاجأتني حـدة اللقاء. بدا الطلاب الآخرون في كل جامعـة زرناها تقريبا متشوقين إلى مـلء الاستبيانات، لكن هؤلاء لم يظهـروا أي اهتمام بها على ما يبدو. لربما بعضهم لم يكن يفهم الإنكليزية؛ لست واثقا من ذلك. أخيرا، تخلينا عن المهمة وعاودنا الانضمام إلى الحديث مع طلاب التخرج.

قبـل هذه الحادثة، كنا نجلـس ونتحدث مع أعضاء الهيئـة التدريسية والطلاب على مائدة غداء في جامعة عليكره، فوجدنا أنفسنا وجها لوجه مع المشكلات العميقة واليائسة علـى ما يبدو التـي يعانيها المسلمون في الهنـد[20]. لم ندرك، لا أنـا ولا المضيفون الذين استقبلـوني، التفاعـل العدائي في الحـرم الجامعي، لكنني لاحظـت مبالغتهم في اللطف والتهذيـب إلى درجـة الاحترام. قال أحـد الطلاب: "لا يريد المسلمـون الهنود العيش في غيتـو مغلق، لكنهم مجبرون على الانعزال داخله نتيجـة عوامل اجتماعية - اقتصادية". وتلك مفارقة لا شك فيها. فقد أسست جامعة عليكره لقيادة المسلمين في الهند الحديثة. وحققـت قدرا كبيرا من النجاح خلال مرحلة شبابي بحيث أصبحت نموذجا مثاليا، لكن تشـاؤم هـؤلاء الطلاب تدعمه الحقائق والأرقام. فضلا على ذلـك، ليس لديهم فعليا أي تمثيـل في وسائل الإعلام التي تؤبلس الإسلام: "دفعنـا لنشعر بالذنب في كل مرة يرتكب فيها مسلم خطأ ما".

المفارقـة الوثيقة الصلة وربمـا الكبرى أن لنموذجي عليكـره وديوباند مصادر إلهام مشتركـة، على الرغم من الهـوة التي تفصـل تقاليدهما التراثية التاريخيـة ومواقفهما السياسية. أولها النبي، القدوة الأولى في نظر الكل. وفي حين أن الطلاب في جامعة عليكره يذكرون باحترام وتقدير مؤسسها، السير سيد، بوصفه مثلا أعلى، إلا أنهم يشعرون أيضا أن زعمـاء المسلمـين بحاجة إلى أن يكونـوا أكثر جرأة وجسارة وتحديـا لتمثيل الإسلام. وحـين سألناهم ترشيح النمـاذج المعاصرة التي تحتذى، بدت اللائحـة وكأنها أعدت في ديوبانـد: أسامة بن لادن، أبو الأعلـى المودودي، ياسر عرفات، محمد أحمدي نجاد. تلك هي المفارقة التي لم أكن مستعدا لها.

في الحقيقة، أقلق افتقار العالم الإسلامي إلى القيادة الرشيدة مضيفينا في عليكره. إذ قال أحد الطلاب: "نعيش في مجتمع يعاني الركود". أضاف آخر: "ليس لدينا نماذج تحتذى. ليس بيننا نموذج واحد". ولم يكن هناك زعيم مسلم في الهند أيضا يمكن أن ينظر إليه باحترام. ورشح الطلاب ثلاثة أسماء لكتاب مسلمين بارزين على المستوى الوطني: ام. جي. أكبر، وآصف نوراني، وأصغر علي انجنير. فالزعامة الإسلامية، كما قالوا بتسليم، لا تملك الشجاعة ولا الرؤية. زيادة على ذلك، حين دخل التلفزيون الملون إلى الهند قبل عقدين ونصف من السنين، أدانه ولعنه الزعماء الدينيون بوصفه رجس من عمل الشيطان وأصدروا فتوى بتحريم مشاهدته، حسبما اشتكى الطلاب. والآن، يجلس الكل طوال اليوم أمام أجهزة التلفزيون، فالمسلمون ينتقلون من حد متطرف إلى آخر، مثلما قالوا والحزن باد عليهم.

بدا أن انسحارهم بالعولمة أخذ يتلاشى ويضمحل، مع أنهم قرؤوا "ثروة الأمم" لآدم سميث و"العالم مسطح" لتوماس فريدمان، وأثارتهم إمكانية النجاح اعتمادا على الأهلية والكفاءة في المجتمع الرأسمالي. ولا يبدو أبدا أن الشباب المسلم يدقون باب العولمة لأن من الصعب العثور على وظيفة: "أرباب العمل يشاهدون أسماءنا المسلمة على طلبات التوظيف ويرفضونها". في الهند، حيث تملك العولمة شعبية ظاهرة، يلجأ الكثير من المسلمين إلى الجريمة، كما قال مضيفونا؛ فمستويات تعليمهم هي الأدنى في الهند، ويعيشون في "غيتوات" منفصلة ومعزولة، وهم أدنى مرتبة من طبقة المنبوذين[21]. ويشير تقرير صدر منذ مدة قريبة عن لجنة برئاسة قاضي المحكمة العليا (المتقاعد) راجيندر ساكار، إلى أن هذه المخاوف مبررة[22]. فنسبة المسلمين في السجون مرتفعة ولا تناسب عددهم من إجمالي السكان، والفقر بينهم ينذر بالخطر، واحتمالات المستقبل كئيبة وآفاقه مسدودة. ومع أن المسلمين يمثلون نسبة 13% من سكان الهند (أي قرابة 150 مليونا)، إلا أنهم لم يشغلوا عام 2006 سوى 2% من وظائف الخدمة الإدارية الهندية المرموقة، ومنها مناصب قضاة المناطق، وتنحدر النسبة إلى مستوى أقل من الطلاب الذين يدرسون في معاهد التكنولوجيا الهندية النخبوية. ولا يلتحق بالمدارس الدينية التقليدية سوى 4% من المسلمين الهنود. ووفقا لأبي صالح شريف، أمين سر اللجنة التي

أصدرت التقرير، تراجع المسلمون بالمقارنة حتى مع طبقة المنبوذين الهندوس. وفي سبيل معالجة الوضع، أوصت اللجنة بالتعليم المجاني والإلزامي، إضافة إلى الدعم المالي. لكن مثل هذا العمل الإيجابي خصص لطبقة المنبوذين الهندوس وغيرها من الطبقات التي تعد رسميا "متخلفة".

في عليكره، أدى الاعتراف بأن مسلمي الهند الفخورين بماضيهم قد انحدروا إلى مرتبة أدنى حتى من طبقة المنبوذين إلى لحظة من التأمل الذاتي المدمر، لاسيما وأن الجماعة تعبر عن الشعور العام السائد بين الطائفة. وبصفتي مسلما من جنوب آسيا، عرفت الأهمية الدلالية لهذه العبارة. فهذا ما حل بطائفة افتخرت بحكم الهند طوال أكثر من خمسمئة سنة وأعطتها بعضا من أعظم أسرها الحاكمة. قبل بضعة عقود فقط، كانت عليكره تتربع على قمة العالم. أما الآن فقد انحدرت إلى قاع مجتمع مهوّس ومعرف ومحدد بالطبقة والتراتبية. وفقا للدستور بالطبع، فإن الطبقات محظورة في الهند، وهذا هو موقف الحكومة الهندية الرسمي. أما الواقع هناك - كما هو في باكستان - فيشير إلى أن الأفراد لا يحددون ويعرفون بدينهم فقط، بل بطبقتهم وقبيلتهم وطائفتهم ومذهبهم أيضاً.

حين أشرت إلى أن ثلاثة من رؤساء الهند كانوا من المسلمين، وهذا أمر جيد للأقلية المسلمة وفضل ينسب للديمقراطية والنزاهة والعدالة في الهند، رد مضيفونا على الفور بالقول إنه لم يصل ولن يصل إلى منصب رئاسة الوزراء أي مسلم. ففي الهند، تتجمع السلطة السياسية في مكتب رئيس الوزراء لا رئيس الدولة. وليس تعيين مسلمين في منصب الرئاسة سوى حيلة بارعة من حيل العلاقات العامة التي تقوم بها الحكومة، وليست ممارسة حقيقية للديمقراطية، كما لا حظوا. وعندما ذكرت أن بعضا من أشهر نجوم السينما في بومباي هم من المسلمين، رد أحد الأساتذة بالقول: "صحيح أن أبرز الموسيقيين ونجوم السينما والرياضيين هم من المسلمين، إلا أنه لا يوجد ما هو إسلامي أو مسلم في ذلك. فهم يأتون من الزيجات المختلطة الأعراق والملل. وليست لهم صلة ببقية المجتمع". وكما تؤكد جماعة عليكره بالحجة والدليل، فإن بعض الناس يرغبون بأن يصبح جميع المسلمين من أمثال نجوم "بوليود" (هوليود الهند) هؤلاء. ويقصدون

أن هؤلاء النجوم المسلمين لم يعودوا يتصرفون أو يعيشون أو يتعبدون مثل باقي المسلمين. لقد تخلوا -لأغراض عملية - عن دينهم. وما إن يتخلى المسلم عن التراث الإسلامي والممارسة الإسلامية يحكم عليه المسلمون في الهند فورا بأنه خرج على الدين وأصبح غريبا عنه ولا منتميا إليه. بكلمات أخرى، ما يزال نموذج عليكره، برغم حداثته، يعد نفسه إسلاميا.

لا يضاهي فقدان أفراد الجماعة للثقة سوى مظهرهم الخارجي. فملابسهم الغربية رثة ومهترئة. تذكرت الأشخاص الذين ارتبطوا بجامعة عليكره قبل جيل من الآن، حيث كانوا يرتدون أحدث الثياب الغربية على اعتبار أنهم يمثلون هوية إسلامية حديثة، وبدأت أجد الحديث مثيرا للكآبة. فالحاضر القاتم الذي يواجهونه سيئ بما فيه الكفاية؛ وتبين لي أن يأسهم من المستقبل هو ما يقلقهم ويربكهم. وبدا أن السفينة التي ركبوها إلى عالم الحداثة الجديد الجريء قد جنحت وارتطمت بالصخور.

في طريق العودة إلى دلهي، لاحظ أعضاء الفريق ما شعرت به من خيبة أمل وإحباط نتيجة الانحطاط الدرامي الذي أصاب التفكير التقدمي والثقة بالنفس لدى جماعة عليكره. وكان سماع اختيار الطلاب بن لادن قدوة في حرم الجامعة التي أسسها السير سيد- الذي أعجب بالإنكليز فصمم كليته على نموذج كيمبردج، أهم جامعة إنكليزية - يشابه مشاهدة انهيار وتداعي نموذج عليكره، الذي رمز ذات يوم لحداثة وتقدم المسلمين، ويعبر الآن عن الألم والغضب والتبريح.

حين واجه مؤسس كلية عليكره، السير سيد، هجمة الحداثة الغربية في زمنه وأصابه قلق شديد، مثل العديد من المتدينين المسلمين، من مسألة خدمة الحاكم الأجنبي، اختار سبيل التعديل والتكيف. فانتفاضة عام 1857 ذاتها التي أجبرت ديوباند على السير في طريق، دفعته وجهة طريق آخر. إذ شاهد العائلات المسلمة تدمر وتصادر أراضيها. ورأى مدينته المحبوبة، دلهي، تسقط تحت نير الاحتلال وتدمر مناطق واسعة منها. وأبنيته المفضلة تهدم. كانت الصدمة شديدة وعميقة إلى حد أنه فكر بالهجرة إلى الحجاز (في شبه الجزيرة العربية)، بعيدا عن تأثير ونفوذ البريطانيين. لكن عندما شاهد معاناة وآلام إخوانه في الدين، قرر عدم التخلي عنهم، وإثبات أن المسلمين جماعة

"مفيدة ونافعة" وأن رابطة لاهوتية متينة تجمعهم مع المسيحيين. ثم زار إنكلترا وبلغ تأثره بالثقافة الإنكليزية حد اعتبارها نموذجا مثاليا يجب أن يحاكيه المسلمون. وحمل بكل جرأة - آنذاك - البريطانيين مسؤولية انتفاضات عامي 1857. 1858، لكن صاغ انتقاده بلغة الصداقة. وناشدهم اتخاذ خطوات لإنهاء الشعور بالعزلة والإقصاء والظلم لدى المسلمين. وأوصى - مثلا - بتعيين المسلمين في المناصب الرفيعة. وناشد المسلمين ألا يضمروا مشاعر الازدراء والكره للبريطانيين وأفعالهم، ويركزوا على العوامل المشتركة بينهم وما يمكن تعلمه من هؤلاء المستعمرين الأجانب بحيث يستطيعون البقاء والعيش بكرامة[23].

وبعد إدراك البريطانيين الحاكمين في الهند الحاجة إلى العون المحلي وعمل الزعماء المسلمين معهم، وجدوا إمكانات ضخمة في عليكره (في القرن التاسع عشر). فقد كانت على استعداد لإنهاء معارضتها لحكمهم والتخلي عن التشدد الديني، وتوفير الرعاية بأسلوبها الأرستقراطي للزعماء الذين تستطيع بريطانيا التعامل معهم. وبدت عليكره ترياقا مثاليا لديوباند. إذ لم ينس البريطانيون كيف تصرف رئيسا المؤسستين في عامي 1857. 1858: فقد عرض السير سيد (عليكره) حياته للخطر لإنقاذ البريطانيين خلال الانتفاضات، في حين شارك أبو الأعلى المودودي (ديوباند) في الجهاد الحربي ضدهم.

لكن في رأي بعض المسلمين، تخلت عليكره عن الإسلام. على سبيل المثال، لاحظت قصيدة هجائية كتبها أكبر الله أبادي (1846. 1921)، أن "المعدة" أخذت الأولوية على كل شيء آخر عند أتباع عليكره[24]. واتهم أكبر السير سيد ببيع دينه إلى قوة غريبة مهيمنة مقابل الربح المادي - تماما كما كان سيفعل "العم توم" المألوف في الأدب الأمريكي. لكن الاتهام كان ظالما. فقد كان نسب السير سيد (تربطه علاقات وثيقة وعميقة بالأرستقراطية المسلمة والصوفية)، وأهدافه وأفكاره لا غبار عليها من وجهة النظر الإسلامية. إذ قضى حياته يترجم الإمام الغزالي والقرآن ويكتب المقالات عن المشكلات التي تواجه المسلمين في الهند - وجميعها ما تزال مهمة وتستحق القراءة. أما أشعاره بمناسبة مولد الرسول فما تزال مثيرة للمشاعر.

لم يستطع السير سيد إرضاء وتهدئة غضب المسلمين الذين اتهموه بإلحاق الضرر بالدين على الرغم من التزامه المخلص قضية المسلمين. ففي عام 1873، أصدر علماء الدين في الحجاز فتوى تكفره وتحل دمه. لكنها لم تفت في عضده. فقد استمرت كليته في عليكره بالازدهار، وكانت في الحقيقة نقطة مثاقفة واتصال بين الإسلام والغرب. وسيتبدى ذلك مثلا في إهداء أي. ام. فوستر لروايته "ممر إلى الهند" إلى روس مسعود، حفيد السير سيد. وبغض النظر عما قاله المنتقدون عن عليكره، فقد أوجدت مساحة وفلسفة حيث يمكن للناس والأفكار من خلفيات متنوعة "الاتصال" – كما يقول شعار فورستر.

أوجدت عليكره مجتمعا لم يكتف بقيادة المسلمين في الهند فقط، بل أمكنه التقدم بخطوة واثقة نحو العالم بعد بضعة عقود من الأحداث الصادمة في عامي 1857. 1858. وعبر إعطاء المسلمين في الهند شعورا بالثقة وإحساسا بالوجهة، أظهرت عليكره أن الإسلام وثيق الصلة فعلا ويمكن أن يسهم في العالم الحديث. وبالمقابل، وجد الروحانيون والمتصوفة والمتشددون المسلمون أن من الصعب مواءمته مع العصر الحديث. وبحلول منتصف القرن العشرين، واستقلال البلدان الإسلامية، بدا وكأن نموذج عليكره سيسود ويهيمن.

كان المسلمون الذين قادوا هذه الحركات في سبيل الاستقلال الوطني منغرسين عميقا على ما يبدو في معسكر الحداثةمن كمال أتاتورك في تركيا إلى محمد علي جناح في باكستان، إلى سوكارنو في إندونيسيا. لكن قوة أتاتورك استندت إلى المؤسسة العسكرية، وبقي سوكارنو ديماغوجيا فاسدا حتى النهاية، في حين كانت رؤية محمد علي جناح أقرب ما يمكن إلى نموذج عليكره المثالي للدولة الإسلامية الحديثة حقا. فقد كانت باكستان محمد علي جناح أرض العدالة للجميع والرحمة والعطف على المحرومين. وبين رؤيته بوضوح في خطبتين على قدر كبير من الأهمية فيما يتعلق بالتطورات اللاحقة ألقاهما أمام الجمعية التشريعية في آب أغسطس 1947، حين كانت بلاده في مخاض الولادة: "الآن، إذا أردنا أن نجعل دولة باكستان العظيمة هذه سعيدة ومزدهرة علينا – أفرادا وجماعات – أن نركز على رفاهية الناس، خصوصا الجماهير والفقراء.. أنتم أحرار؛

أنتـم أحرار في الذهـاب إلى معابدكم، أنتم أحرار في الذهـاب إلى مساجدكم أو أي دور للعبـادة في دولـة باكستان هذه.. وسيكـون مبدأي الهـادي العدالة والنزاهـة والحيادية التامة"[25].

أيـد العديد من الطلاب المسلمين في عليكـره باكستان بل هاجروا إليها. وأصبح عدد منهـم رؤسـاء ورؤساء حكومات هناك. لكن البلدة نفسهـا بقيت في الهند وعانت من ردة الفعـل المعاديـة لباكستـان بعد الانفصال عـام 1947. مظـالم الماضـي وأذى التعصب والتحيـز مازالـت تطـارد طلاب عليكـره. وكما بدا واضحا مـن زيارتنا، ما يـزال الكره والتمييـز يجعلان من الصعب علـى خريجي عليكره العثور على وظائف. وعلى الرغم من محاولات عليكره التكيف مع الظروف الجديدة وكفاحها في سبيل النجاح، إلا أنها ستفشل في المسعى لأن العولمة لم تخفق في رفع هذا الغطاء السميك فقط بل مثلت تهديدا محفوفا بالخطر للثقافة الإسلامية.

أعتقـد أن من الممكن تفسير تجربة هاديا وفرانكـي المقيتة في عليكره بالورطة المأزقية التـي سببتهـا العولمة لجامعة ونمـوذج عليكره. ومثلما حدث في القـرن التاسع عشر، يشعر أتبـاع عليكـره اليوم بأنهـم يخسرون لغتهـم ودينهم وهويتهـم. فكيف يمكـن لي أن أتوقع تعاطـف طلابهـا بكل مشاعر العجز والضعـف التي تمتلكهم مع الغـرب، أو أن تختلف ردة فعلهـم عن أتباع ديوباند حين يصبون جام غضبهم علـى أفعال الولايات المتحدة؟ يبدو أن قلـة من مسلمي عليكره لديهم ذاك القدر من الصـبر أو التسامح الذي أظهره السير سيد في التعامـل مع الغرب. وبدلا من ذلك، فهـم يطالبون برد فوري وغريزي يعبر عن فخرهم واعتزازهـم على الهجوم على معتقداتهم وتقاليدهم وتراثهم. أبلغني فرانكي فيما بعد أنه صـدم بالتشابه الغريب بين حجج عليكـره وديوباند. أما الفارق الوحيد فتمثل في أن طلاب عليكره كانوا عدائيـين في حين اتصف طلاب ديوباند بالدماثة والتهذيب وشعر أن ديوباند تبدو أكثر أمانا فيما يتعلق بهويتها ومصيرها، في حين اتخذت عليكره موقفا دفاعيا ويائسا، وهي تكافح من أجل البقاء في ظروف تجعل من الصعب الاحتفاظ بالهوية الأصيلة.

لكن في بعض الأوساط، تسببت العولمة في إحداث تغييرات وتعديلات أخرى في نموذج عليكـره. إذ يمكن للمسلم الذي يتحدث الإنكليزيـة ويرتدي الملابس الغربية، ويتكلم بلغة

المـال وتكامـل المنظومـات الاقتصادية في العـالم، أن يبلي بـلاء حسنـا. ويجسد شوكت عزيـز رئيـس وزراء باكستان هـذه التعديلات. فقد عين هذا المديـر التنفيذي السابق في "سيتي بانك"، الذي اشتهر بكلامه المعسول وملابسه الغربية الأنيقة، ديكتاتور عسكري لاستخـدام صلاتـه في واشنطن ونيويورك لدمج اقتصاد باكستـان في الاقتصاد الغربي. وقـال لي خـلال زيارة إلى باكستـان في آذار/ مارس 2006 بأسلوبه السلس السهل إن "العولمة كالموجة.. إما أن تركبها أو تغرقك".

على مر العقود، أصبح نموذج عليكره، الذي كان ذات يوم مثاليا وعاقد العزم، مجرد ظـل متواضـع وهزيل ويفتقـد الأهمية لمكانته السابقـة. فزعماء نمـوذج عليكره الجديد متحمسـون فعـلا للنزعـة الاستهلاكيـة في الحضـارة الغربيـة. وهم ببساطـة "يركبون الموجـة". وبالمقابل، سار زعماء عليكره قبل جيل واحد فقط قدما إلى الأمام دون التخلي عـن هويتهـم أو نزاهتهـم أو كرامتهم عبر الإحيـاء الواعي للخطـاب الإسلامي والهوية الإسلاميـة. فضلا على أنهم بذلك لم يؤسسوا وطنا للمسلمين في دولة باكستان فقط، بل غيروا العالم أيضاً.

obeikandl.com